

رسالة

(في أدب اللغة وملكة الذوق)

لواضعها

(ابراهيم افندي بسيم)

(الكاتب الاول لمشيخة الجامع الاحمدى)

القيت

﴿ بأسلوب محاضرة ﴾

(في نادى موظفى الحكومة بالاسكندرية)

..... رسالة من
« والدر بالقيراط مقياسه »

« والارض بالفرسخ والميل »

المطبعة الوطنية بالاسكندرية بشارع علي بك الكبير

نمر ٩ خلف السبع بنات --- لصاحبها

عبد الله علي احمد

حداثی مارا بنده محمد شجاع سیدی الباشا
و جمیع افعطاف و ائمه اقدم الیه
بہذا الرسالہ الصفیۃ راجعاً
اے شرفی بالتسکین الی قولہ

۹۱۵/۱۰۵۰
حسم

رسالة

(في أدب اللغة وملكة الذوق)

لواضعها

(ابراهيم افندي بسيم)

(الكاتب الاول لمشيخة الجامع الاحمدى)

القيت

﴿ بأسلوب محاضرة ﴾

(في نادى موظفى الحكومة بالاسكندرية)

« والدر بالقبراط مقياسه »

« والارض بالفرسخ والميل »

المطبعة الوطنية بالاسكندرية بشارع علي بك الكبير

نمره ٩ خلف السبع بنات - لصاحبها

عبد الله علي احمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وبه ثقى

أيها السادة

.....
.....

الكلام على اللغة العربية من الطريق الذى توخيناها يستلزم ان
نقدم بين يديه فذلك عن العهد الذى يرجع اليه تاريخ التدوين
بهذه اللغة قبل الاسلام وبعده ، فان ذلك ينفعنا في الرد على قوم
طعنوا في صحة كثير مما تلقيناها من العلوم الاسلامية في الصدر
الاول ، زعماءهم ان هذه العلوم لم تدون الا في القرنين الثاني
والثالث للهجرة ، وأن ما كان هذا شأنه من العلوم غير جدير
ان يوثق به ، ويركن اليه ، لطول عهده بالتدوين ، وتصيده بعد

ذلك الزمن الطويل من اذهان الحفّاظ وصدور التابعين
والكلام في هذا الباب طويل الذيول . جم المسالك .
وفي الاسباب فيه مظنة لخروج عن الموضوع الذي
رسمناه لهذه المحاضرة فنجتزئ ، الآن بالمرور على النقط المهمة
فيه مرأ ، حتى اذا احسنا بالحاجة الى الافاضة والاستقصاء
افردنا له بحثا خاصا ، وألقيناه في فرصة اخرى

لا مشاحة ان العرب امة امية ، ولكن هذا القول ليس
على اطلاقه ، وانما جر بعضهم الى اطلاق الكلام فيه أنهم لم
يعثروا العرب الحجاز على آثار كتابية تدل على معرفتهم بالخط
واشتغالهم بصناعة التدوين ، والذي عليه الثقات من المؤرخين
ان الخط العربي كان بالغامبلغه من الاتقان والاحكام في دولة
النبابغة^(١) وهو المسمى بالخط الحميري ، وانتقل منها الى
الحيرة^(٢) في عهد آل المنذر الذين هم نسباء التبابغة في العصبية

(١) التبابغة جمع تبع كسكر لقب ملوك اليمن ككسرى لقب ملوك الفرس
والنجاشي لقب ملوك الحبش الخ

(٢) الحيرة كسيرة بلدة قديمة الى الجنوب الغربي من اخرة بابل وتغرب
من نهر الفرات وبينها وبين الكوفة فرسخ واحد

و لجددون لملك العرب بأرض العراق ، ومن الحيرة انتقل الى
هل حجاز فلبثوا يكتبون العربية بالحرف النبطي تارة ،
وبالعبراني تارة ^(١) وبالسرياني تارة ، ثم تختلف عن الحروف
النبطية ما نسميه نحن بالخط النسخي ، وعن السريانية ما يعرف
بالخط الكوفي - وقد رأيت صوراً شمسية لكثير من الحروف
والكلمات النبطية وهي عوان (وسط) بين الخطين النسخي
والكوفي

(١) العبرانية لغة بني اسرائيل الذين ينتهي نسبهم الى عابر بن شالخ من
ابناء سام وهي مشتقة من السريانية التي نزل بها الانجيل ، وللسريانية
ثلاثة اقلام - وليس من فرق بينها وبين الهجاء العربي الا في بعض الحروف
وقد وقع الاختلاف في لغات البشر بعد وفاة نوح بنحو ٣٢٠ سنة عند
تبليل الالسن بأرض بابل في جزيرة سوري اوسوريانة التي كان فيها نوح
وقومه قبل الطوفان - وسبب هذه البابلية ان من بقي بعد الطوفان كانوا
يخافون ان تجلب شرور البشر عليهم قصاصاً ثانياً فاجمعوا امرهم على بناء
برج عظيم ياجئون اليه عند الحاجة وشرعوا في تأسيسه بالفعل على شاطئ
نهر الفرات حتي بلغوا به ارتفاعاً عظيماً جداً فداخا لهم من ذلك اعجاب
نفساني وتسربت اليهم رذيلة الكبرياء وضمنوا انهم بالغون ما حدث به
فرعون نفسه بعد -هم - . فأنزل الله بهم نازلة التناكر الانساني وأصبحوا
لا يفهم بعضهم بعضاً - ومن ثم تفرقوا في انحاء الارض - هذا هو مبدأ

ذلك ما يتعلق بصناعة الخط والكتابة من حيث نشأتها وتطورها
بالإيجاز الذي يحتمله المقام. أما شرف اختراعها واستنباطها فراجع
إلى المصريين ، وهم في ذلك اساتذة العالم على الإطلاق ، ولقد
كانت الكتابة لأول عهدها عندهم رسوما تقريرية تمثل نفس الشيء
الذي يراد التعبير عنه ، فإذا أرادوا كتابة الشمس مثلا رسموها
دائرة (تتوسطها نقطة) أو القمر رسموه هلالا ، أو اسدا
ورسموه بعينه ، أو حصانا رسموه كذلك ، ويسمى هذا

اختلاف اللغات وتشعبها

وعلى ذكر السربانية وإفلاها نذكر هنا أن أقدماء اليونانيين (وقد ظهروا
قبل الاسكندر ب ٨٤٥ سنة) قلما يسمى « الساميا » وكان الحرف منه
يحيط بالمعاني الكثيرة ويجمع عدة كلمات — قال جالينوس في بعض كتبه
كنت في مجلس عام فتكلمت في التشریح فلما كان بعد أيام لقيتني صديق
لي فقال ان فلانا يحفظ عليك في مجلسك انك تكلمت بكذا وأعاد علي
المناطي ، فقلت من اين لك هذا ، قال اني لقيت كاتباً ماهراً بالساميا
فكان يسبقك بالكتابة في كلامك وهذا العلم يتعلمه الملوك وجملة الكتاب
ويمنع منه سائر الناس لجلالته . وقد ذكر النديم ان رجلاً متطبياً جاء
إليه من بعابك سنة ٤٨٠م وزعم انه يكتب بالقلم اليوناني (الساميا) قال
فجربنا عليه فأصنأ اذا تكلمنا بعشر كلمات أصغى إليها ثم كتب كلمة
فأستعدنا ما قلناه فأعاده بالفاظه . أفليس هذا هو الخط المختزل بعينه !

النوع من الكتابة : « الخط التصويرى » ثم اخترعوا نوعاً
آخر من الخط وأطلقوا عليه اسم « الكتابة الحقيقية » وهو
عبارة عن رموز اصطلاحية يرمز بها الى اخص صفات الشيء
وتفرع عنه بعدما يسمى بالكتابة او « الخط المخصص »
وهو عبارة عن رسم الشيء بعلامات، وكتابته بحروف تدل عليه



هاتان الفذ لكنتان : « التاريخية ، والأثرية » تدلانكم
ايها السادة : — ان الاسلام جاء والكتابة معروفة راقية في
بلاد العرب ، والا فكيف دونت المعلقات السبع مثلاً ، وكيف
علقت على استار الكعبة !

أما أن العلوم الاسلامية لم تدون الا في القرنين الثاني والثالث
للهجرة ، فردود بما ثبت من شيوع الكتابة بين الصحابة وما
كان من اتخاذ النبي لزيد بن ثابت^(١) ومعاوية وغيرهما يكتبون
ما عليه عليهم من رسائل الدعوة الى معاصريه من الملوك كهرقل
عظيم الروم ، والنجاشي عظيم الحبش ، وكسرى عظيم الفرس

(١) هو اول مترجم في الاسلام : امرد النبي ان يتعلم العبرانية فتعلمها
في زمن وجيز جداً — مات سنة ٤٥ هـ

والمقوقس عظيم القبط بمصر ، وأنهم كانوا يعنون بضبط الوحي
وكتابة آي القرآن الكريم والاحاديث النبوية وفي تذكرة
الحفاظ للذهبي ان أبا بكر كتب وحده ما ينيف على اربعمائة
حديث

وعلى ذكر النبي ورسائله اذكر لكم ان عتدي صورة شمسية
من الكتاب الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى المقوقس
في السنة السابعة للهجرة وقد عثر عليه ساحح فرنسي في
دير ببادية اخميم من مدن الصعيد فابتاعه ضمن كتب أثرية
قديمة من ذلك الدير وقدمه للسلطان عبد المجيد الثاني ولا
يزال هذا الكتاب محفوظا الى الآن مع الآثار النبوية بمدينة
القسطنطينية . وسأستخرج ان شاء الله نسخة من هذه
الصورة الشمسية واقدمها لناديكم الموقر لتحفظ بمكتبته
أثرا تاريخيا مباركا . وليس أدل على شيرع امر
الكتابة وتدوين العلوم الاسلامية في القرن الاول مما رواه
ابن عبد البر عن هشام بن عروة عن أبيه أن كتبه احترقت
يوم الحرة ومن قوله في ذلك : «وددت لو أنني استردكتي

بأهلي ومالي : « والمعروف من التاريخ أن وقعة الحرة كانت في
خلافة يزيد بن معاوية عام ٦٣

وكان ابن شهاب الزهري من علماء القرن الأول^(١) وقد روى
ابن خلكان (بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة) أنه كان إذا
جلس في بيته يجمع حوله الكتب فتصرفه عن كل شغل آخر
يهمنا من هذا الذي تقدم أن تقرر :

أولا — أن الكتابة كانت معروفة راقية عند المتحضرين من
العراقيين وعنهم أخذها أهل الحجاز

ثانيا — أن القرآن هو أول « كتاب » كتب باللغة العربية
بالحروف الكوفية المتخلفة عن الحروف النبطية . وكان في
أول عهده غير معجم ولا مشكول ثم أعجم وشكل خوف اللبس
والواضع لذلك أبو الأسود الدؤلي ثم نصر بن عاصم الليثي بأمر
الحجاج في عهد ولايته على البصرة ثم جاء الخليل بن أحمد
الأزدي فهدب جميع العلامات وأتم ما كان ناقصا منها^(٢)

(١) مات في أوائل القرن الثاني سنة ١٢٥ هـ —

(٢) هؤلاء هم المستبطنون للنقط والعلامات في الإسلام وقد مات أبو الأسود

ثالثاً أن العلوم الإسلامية وينبوعها الذي هو القرآن قد
دونت كلها أو جلها في عهد النبي والخلفاء الراشدين بحسب
ما كان يتيسر لهم إذ ذاك من سعف النخل والقضم (١)
والرقاع المختلفة وبعض الحجارة البيض حتى تهيأت لهم
وسائل الجمع فرتبوا كل ذلك وبوبوه أخذاً عن هذه الرقاع
وصدور الحفاظ (٢) ولولا أن شريطتنا أن نمر على رؤوس هذه
المسائل مرأى ونفقت اليها أنظار عشاق البحث والتوسع الفاتنة
لجئنا على خلاصات نافعة في كل مطلب من هذه المطالب
فأستميحكم عذراً !

وضع النحو

لم يكدينقضى ثلث القرن الأول للهجرة حتى أحس العرب
بالحاجة الى تدوين فن النحو : جاء أبو الأسود الى زياد وهو

سنة ٦٧ هـ ونصر سنة ٨٩ والخليل سنة ١٦٠ — اما الحركات الاعرابية
من حيث هي فمن أوضاع السريان وقدماء اليونان
(١) قطع الجاد الأبيض

(٢) من التفاسير المهمة للقرآن الشريف تفسير ابن مسعود وابن عباس

أمير على البصرة فقال :

« اني أرى العرب قد خالطت لأعاجم وفسدت ألسنتها
أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ؟ » فقال زياد
لا تفعل — قال فجاء رجل الى زياد: فقال « أصالح الله الأمير :
« توفي أبانا . . . وخلف لنا بنون . . . » فدعا زياد أبا الأسود
وأمره أن يضع ما نهاه عنه . وبلغ ذلك عليا فرسم لأبي الأسود
باب ان وباب الاضافة وباب الامالة ، ثم سمع أبو الأسود رجلا
يقراء قوله تعالى : (ان الله برىء من المشركين ورسوله
(بمطف الرسول على المشركين) فوضع باب العطف (١)

وما زال القوم يتوسعون فيما وضع أبو الأسود ويزيدون
فيه على نسبة افعالهم في بلاد الاعاجم ، واختلاطهم بأهل البلدان
التي يفتحونها ، حتي بلغ درجة الكمال

فألف فيه من ألف ، ونبغ من نبغ ، وكان أكثر أهل هذا الفن

رضى الله عنهما وقد مات الاول سنة ٣٢ والثاني سنة ٦٨ للهجرة

(١) جوز بعضهم شذوذا قراءة « المشركين » بالكسر على أن تكون الواو

للتسم ؟

على العكس من عصرنا هذا - يجمعون بينه وبين علم الأنساب (١)
وأخبار العرب ووقائعهم كاخليل (١٦٠) وسيبويه (١٦١)
وأبي عبيدة (٢١٠) والاصمعي (٢١٣) وأبي زيد الانصاري
(٢١٦) والجاحظ (٢٥٥) وأبي العباس المبرد (٢٨٥ هـ)
وغيرهم (٢)

وكان أبو عبيدة البصري من أعلمهم بأيام العرب
وأخبارهم وأشعارهم وهو أول من صنف في غريب الحديث :
أقدمه من البصرة الى بغداد الوزير الفضل بن الربيع (٣)
دخل عليه كاتبه ابراهيم بن اسماعيل يوما وهو في حضرة

(١) هو علم جليل القدر عظيم النفع : وقد جاء التنويه به في القرآن
الكريم قال جل شأنه (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وفي الحديث
الشريف : (تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم)

(٢) الأرقام الموضوعه بازاء الاسماء تدل على تاريخ الوفيات بالحساب
الهجرى

(٣) كان الفضل وزيرا لهرون الرشيد ثم صار وزيرا للامين بعده ،
واليه تعزى الفتنة التي اجتاحت فيها البرامكة — وأول من سعى وزيرا
في الاسلام احمد بن سليمان الخلال : سماه بذلك السفاح أول خلفاء بني

الفضل ، فبعد أن حياها استأذنه في مسألة فقال أبو عبيدة هات !
قال وصف الله سبحانه شجرة الزقوم بقوله (طلعها
كأنه رؤوس الشياطين) وإنما يكون الإيعاد والتخويف بما
عهد مثله وهذا لم يعهد (يريد بذلك أن الشياطين
ليست من المخلوقات المرئية التي يعرف الناس من خلقها وصورتها
ما يستبشعونه ويهزعون من النظر إليه) قال أبو عبيدة .
إنما يكلم الله العرب بما تألفه أذواقهم ويندرج تحت أساليبهم
أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي * وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ
وَلَمْ يَكُنِ الْغَوْلُ مَعْرُوفًا عِنْدَ الْعَرَبِ (١)
أقول وقد غلا قوم في التشهير بهذا الفن الجميل وتسفيه

العباس وكان الخلفاء قبله يتخذون الكتاب عوضا عن الوزراء

(١) كانت هذه الحادثة سببا في أن يضع أبو عبيدة (٢١٠) كتابا في
حجاز القرآن فهو أول من صنف في الحجاز كما أن عبد الله بن المعتز (٢٩٦)
هو أول من صنف في البديع ويؤخذ من مقدمة كتابه أن أحدا قبله
لم يتعرض لجمع فنون البلاغة — وإن المعتز هذا أحد خلفاء بني العباس

رأى المشتغلين به وهو خرق ^(١) منهم وشطط ، فالتجوا بلا نزاع ملاك المعنى ^(٢) وقانون اللغة . وميزان الكلام ، ولن يتم الكاتب ما يريد من حسن الصوغ وجمال النظم ومتانة التركيب الا برسم مناهج النحو وتوخى قواعده . والكاتب اذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ثم لحن في كلامه فرفع ماحقه ان ينصب وخفض ما من حقه أن يرفع ذهب اللحن بهجة كلامه ورائع بيانه ، وكان كذلك الذي أراد أن يسأل صاحبه عن أهله فقال : (كيف أهلك ؟) --- بكسر اللام --- فظن صاحبه انه يمزح فقال . (صلبا !) . . .

وكان الرشيد يقول لبنيه :

(ماضر اخدمكم لو تعلم من العربية ما يقوم به لسانه :
أيسر اخدمكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته) !
وعلى السامع . . أيها السادة . . أن يتصور خش الخطأ في قراءة
من قرأ (ان الله بريء من المشركين ورسوله) بعطف الرسول على

ولكنه لم يأت في الخلافة غير يوم ولية ثم قتل رحمه الله

(١) بضم الخاء الحلق وسوء التصرف — (٢) ملاك الامر بكسر الميم
ما به قوامه

المشركين — ليعرف مقدار الحاجة الى هذا الفن وأنه الركن
الأول من أركان العلوم اللسانية

ولا يفوتنا ان ننبه هنا على فضل الصرف وما بينه وبين النحو
وبين متن اللغة من التلازم وشدة الارتباط . وأن المحذور
في أمثال هذه الفنون إنما هو الانصراف الكلي الى قواعدها
بحيث تجعل أصلاً مقصوداً لذاته فإن فضل قواعد النحو مثلاً إنما
يظهر في تصريف وجوه الكلام والاكاف النحو عندنا بمثابة
الحرف عند النحويين انفسهم ، وفي هذا بلاغ ؟

البلاغة - - وملكة الذوق (١)

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

إنما أستشهد بهذا البيت في هذا المقام ادعانا لقدرة الله
واعترافاً بصمدانيته ودقيق حكمته في جعل الفصاحة رأس

(١) الذوق في الأصل عبارة عن قوة مرتبة في العصبية البسيطة على
السطح الظاهري من اللسان من شأنها ان تدرك ما يرد عليه من
خارج الكيفيات الملموسة ثم شاع في الاستعمال حتى اطلق على كل
تجربة يقال ذقت فلاناً أى خبرته وعيجمت عوده - - وقد تطلق على
القوة المهيئة للعلوم من حيث كمالها في الادراك . وقد يختص الذوق

معجزات هذا الدين الخفيف . وتلك سبجانه في مراعاة
حال الأمم التي يبعث اليها برسله . وجعل معجزة كل رسول
فيما يغلب على شؤون الأمة التي يرسل لها رسلها :

فقد كان عهد فرعون مثلاً عهد سحر و كهانة ولم يعرف قوم
بالسحر ما عرف به قوم فرعون ، فجاءهم موسى عليه السلام بمعجزة
إبطال السحر وتوهمين أمره ، وقصة العصا والحبال وسجود
السحرة شائعة معروفة فلا نطيل بإيرادها ، وكان زمن عيسى
زمن حكمة وطب ، فكانت معجزته إبراء الآكمة ^(١) والأبرص
واحياء الموتي ، وغلبت الفصاحة على العرب ، وتفاخرهم
بالشعر والخطب ، فأرسل اليهم محمداً صلى الله عليه وسلم
بالقرآن ، سبحانه ربى ما أحكم هذا التدبير !

جاء القرآن والعرب كما يعرف من تاريخهم أهل لسن
وفصاحة وحرية وحماسة وتفاخر بالأحساب والأنساب
جاء والعربية في أرق ذراها وأرفع طبقاتها ، ولكن تتبع
بما يتعلق بطائفة الكلام نزيلاً له منزلة الشهى اللذيذ من الطعام
بالنسبة للروح الانساني المعنوى وهذا هو المراد هنا
(١) الآكمة الذى يولد أعمى

كلام العرب في الجاهلية والإسلام دل على أن العصر الإسلامي
يفضل العصر الجاهلي ، وأن أساليب الشعر والخطابة والأشياء
ارتقت كثيرا بعد نزول القرآن ، وشيوع حفظه ، وتداول آياته
حتى لقد كانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا لم يرصع خطبته
بشيء من القرآن

وأفضل الشعراء من أدرك العصرين ويسمون بالمخضرمين (١)
ومن هؤلاء لبيد وعمر بن أبي ربيعة وكعب بن زهير وحسان
ابن ثابت والخطيئة وعبد الله بن رواحة وزيد الخليل والزبرقان
ابن بدر التميمي والخنساء والنابعة الجعدى ، يليهم المسلمون
ومن عظمائهم الأخطل وجريز والفرزدق وكثير عزة وليلى
الأخيلية وابن الرومي وذو الرمة والكميت وبشار الخ
فكانوا أرفع طبقة في البلاغة وأبرع في أساليب النظم من
النابعة الديلمي مثلاً وعنترة وعمرو بن كلثوم

ولا غرابة أيها السادة أن يكون للمتخضرين من العرب فضل

(١) الناقة المخضرمة التي قطع طرف أذنها وتأنى بلبه هنا أنهم قطعوا عن
العهد الجاهلي — وابن خالويه على أن المخضرمة الخاط والنأويل عليه
أنهم جمعوا بين العصرين

تقدم على شعراء البادية في حسن الصياغة ولطافة السبك ورقة
الحاشية ، فأنى لذلك الأعرابي الذي ينظم قصيدته وهو يحدو
بغيره ، يتلفت في عرض البداء فلا يبصر الا جبلا ورمالا
اذا لفحه الهجير ، أوجن عليه الظلام ، أوى الى بيت من
الشعر ، أنيسه العيس ، وضجيعه الريح ، وطعامه التمر ، ووساده
الصخر

ينام باحدى مقلتيه ويتقي * بأخرى المنايا فهو يقظان نائم
فاذا مال به المجنون ، أو دعاه داعى الغرام ، اجتمع وخيبه في
ظل رابية . أو في سفح جبل ، أقول أنى لخيال مثل هذا الاعرابى
أن يسامى خيال الحضرى وهو ينظم شعره في القصور والبساتين
بين أفنان مخضرة ، وكشبان مخضلة ، وبين اشياء يطول ذكرها
ويعز حصرها وكلكم تعرفونها (١) . . . فليس بعد عجيبا أن
يكون كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة
واذواقها من كلام الجاهليين في منظومهم ومنشورهم . وان

(١) انشدوا العربى قول ابن المعتز في وصف الهلال :

وكأنما هو زورق من فضة . . قد أثقأته حمولة من عنبر

فقال : هذا رجل يصف أوائى بيته !

يكون شعر حسان وعمر بن أبي ربيعة والفرزدق ونصيب
وبشار وابن بسام اسمى خيالا واصفى ديباجة واحكم صناعة
من الشعر الجاهلي البحت ، والفضل في ذلك للقرآن وما
استتبعه من تدرج القوم في الحضارة واستبحار العمران
واتساع الفتوحات الاسلامية

استبحار العمران والتوسع في فتوحات الاسلام قد افادا
الحكومات الاسلامية حقيقة من هذه الوجهة ، ولكن
كثرة مخالطة المسلمين للاعاجم ادت الى تغلب العوائد الفارسية
على العوائد العربية بالتدريج وخصوصا في الشطر الأخير من
عهد العباسيين حيث اخذت البيوتات العربية العريقة في
النسب تضحل وتتلشى بسبب ايفالها في الترف وانهماكها
على الملاذ والشهوات - واول ما دب اللحن الى لسان اهل
الامصار والمدن ثم سرى الى اهل البادية بعد زمن طويل
لبعدهم عن الأعاجم وقلة اختلاطهم بهم ، فلما تغلب الديلم
والسلجوقيون على الممالك الاسلامية ظهرت دلائل
الاضمحلال في لغة القوم وتلاشت تلك الملكة اللسانية العالية

بما ألقى إليها السمع من لهجات المتعربين وكادت لغة العرب
تلتحق بما تقدمها من لغات الأمم البائدة لولا الحام من الله
سبحانه للمسلمين ان يعنوا اذ ذاك بالقرآن وعلومه لتقوم له
الحجة على خلود هذه المعجزة الكبرى

ثم جاء على العربية دور استردت فيه كثير من خصائصها بتوالي
الأيام وانتشار المؤلفات ونبوغ كثير من العلماء في فنون اللغة
وغيرها وكان ازهر عهد للعلوم والآداب الإسلامية عهد الأمويين
ويبتدىء من سنة ٤١ هـ الى سنة ١٣٢ هـ ، و يليه الشطر الأول
من عهد العباسيين اى من سنة ١٣٢ الى ٣٣٩ - وفي هذه المدة
ظهرت التأليف واخذ العلماء في تفسير القرآن وجمع الحديث
وتعريب كتب الفلسفة والطب والفلك والمنطق على يد آل
بختيشوع وحنين وما سرجويه اليهودى ويحيى بن البطريق
وبحيى بن عدى وموسى بن خالد الخ الخ - وهنا ينتهى الدور
الثانى للعربية وآدابها ، ثم يجيىء الدور الثالث الى ٦٥٦ وفيه
ضعف امر العباسيين بانتقال السلطة الى السلجوقيين - يليه
الدور الرابع من سقوط العباسيين الى عهد استيلاء محمد علي باشا

على مصر عام ١٢٢٠ - يليه الدور الخامس من ١٢٢٠ ولانزال فيه الى الآن

كان تراوح اللغة بين هذه الأدوار الخمسة قوة وضعفاء علوا وانحطاطا - كان ذلك - سببا في حرص انصار العلم والادب على تدوين فنون اللغة ووضع قوانين البلاغة والاصطلاحات المعروفة عندنا الآن ، والانصاف يقضى ان تنبه على أن الاعاجم فضلا كبيرا في هذا التدوين ، وأنهم قد أحسنوا الى لغتنا بقدر ما افسدت عجمتهم من أسنتنا وملكاتنا ، وانما تمكنوا من النبوغ في ذلك بمساعدة البيئات التي نشأوا فيها ، والذوق العربي السليم الذي طبع في قلوبهم ، فالجرجاني والزنجشري وسيدريه وابو على الفارسي والزجاج والسكاكي والتفتازاني ونحوهم من أئمة البلاغة واقطاب اللغة والتفسير والأصول كانوا من الأعاجم أصلا ونسبا ، ولكنهم ادركوا اللغة في شبابها والملة في عنفوانها فحكفوا على مدارس شعر العرب وكلامهم حتى ادركوا الغاية العظمى في ذلك ، واعل هذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من

أهل فارس »

أخذ اللغة عن غير أهلها وفي غير بلاها من أصعب الأمور
وأشقها ، وقد شاهدت أثناء العامين اللذين اقمتهما في دار السعادة
مقدار ما يكابده الأتراك وما يعانونه من المصاعب في تحصيل
العربية وفنونها فأحزنني ذلك كثيرا ، وعرفت فضل مصر
والنشوء فيها من هذه الوجهة ، وللشيخ بهاء الدين السبكي
كلام في هذا الموضوع لا بأس في إيراد بهذه المناسبة -- قال
عند الكلام على علوم البلاغة ما نصه :

« أما أهل مصر فانهم لا يحتاجون الى هذه الفنون بل هم
مستغنون عنها بما طبعهم الله عليه من الذوق السليم والفهم
المستقيم ، والأذهان التي هي أرق من النسيم وألطف من ماء
الحيا في المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار
اليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون
بطباعهم ما أفنت فيه العلماء الأعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم
الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار

والسيف ما لم يلف فيه صيقل من طبعه لم ينتفع بصقال »

ذلك أيها السادة - شأن ملكة الذوق ، ذلك هو الكنز الدفين
الذي جهلنا نحن قدره ، وأغفلنا أمره ، على أننا محسودون
عليه من سائر الأمم !! لا يسبق الى خاطر أحدنا أن فنون
البلاغة قليلة الجدوى عديمة الفائدة ، وأنى أردت بما أوردت
من الشواهد على تأثير البيئة (الوسط) في تربية الملكة
اللسانية أن أسفه رأى المشتغلين بهذه الفنون ، وأبرهن على
أن الجهود التي يبذلونها في تحصيلها تذهب سدى وتضيع
هباء ، والا ناقضت نفسى بنفسى ، وهدم آخر كلامى أوله (١)
ولا ينبغي أن نأخذ كلام السبكي في هذا الصدد على
اطلاقه ونتلقاه قضية مسلمة ، فالركون الى الذكاء مضيعة ،
والقريحة تجمد اذا خليت وشأنها ، قال الشيخ شهاب الدين الحلبي
« وهذه العلوم وان لم يضطر اليها ذوالذهن الثاقب والطبع السليم
والقريحة المواتية والبديهة الحجيبة والروية المتصرفه الا ان العالم بها
يتمكن من أزمة المعاني وصناعة الكلام ، يقول عن علم ويتصرف

(١) راجع ماقلناه في النحو من أن هذا الفن وأمثاله من الفنون الآلية
انما هي آلات ووسائل

عن معرفة وينتقد بحجة ويتخير بدليل الخ الخ» (١)
وانما تقصد من ايراد هذه الشواهد أن تنبه على فضل
الوسط الذي نحن فيه ، والبلاد التي نشأنا فيها ، وأن النبوغ
في لغة العرب وعلوم العربية بأنواعها ليسوا كل واحد منا
إذا عني بتربية ملكة الذوق ، وانماء قوة الفهم عنده ، وأن شهرا
واحدا يقضيه أحدنا في انماء هذه الملكة من طريق المدارس
لفنون البلاغة إذا رام بمثابة ثلاث سنوات يقضيها التركي أو
الألماني في تحصيل هذه الفنون وتطبيقها على اللغة ، والاستعانة
بها على إدراك وجوه الإعجاز في القرآن وكلام العرب

ولكن هذا لا يمنعني على كل حال أن أقطع بأن أثر هذه
الفنون «الصناعية» في تربية ملكة الذوق والانشاء أقل كثيرا من
الأثر الذي يحصل من الامعان في كلام العرب ومطالعة ضروب
منشآتهم في الخطب والرسائل ، والحكم والقصائد ، وأن ملكة
الذوق وصدق النظر ينبغي أن تكون حاصلة عند من يريد
الاشتغال بهذه الفنون قبل أخذه منها وإدراك وجوه الإعجاز

والبلاغة في القرآن وغيره من طريقها - ثم هي تنمو بعد ذلك
أنت يا صاحب الذوق إذا سمعت قول الأعرابي (١) الذي
قتل أخوه ابنه وقدم إليه ليقتاد منه (٢)

أقول للنفس تأسأ وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه

هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

إذا سمعت هذا أو قول طاهر البصري :

ناظراه فيما جنى ناظراه * أو دعاني أمت بما أودعاني

أو قول الخنساء :

إن البكاء هو الشفا * من الجوى بين الجوانح

تأخذك للحال هزة الطرب ، وتذكر « بطبعك » أن

في هذه الأبيات من العذوبة ومن بدائع المعاني والألفاظ

ما لا يوجد في كثير من الشعر ، ولا يتفق لكثير من الشعراء

والكنك لا تعرف مثلاً أن في قول طاهر البصري

(١) الأعراب سكان البادية والعرب سكان الأمصار وإن كان لفظ

« العرب » يشملهم جميعاً

(٢) القود بفتحين القصاص وأقاد القاتل بالقتيل قتله به

ناظراه فيما جنى ناظراه . . الخ
ما يسميه علماء البديع جناسا تاما مستوفى (١)
وأن في قول الخنساء ما يسمونه جناسا مطرفا
فهل يضيرك ذلك ؟

وهل في وسع أحد ممن قتلوا علوم البلاغة دراسة وبحثا
وأخلقوا جدة شبابهم بين مجلداتها كذا وتحصيلا أن يذوق
أو يذيقك حلاوة هذه المعاني الشعرية من طريق تلكم الفنون
« الصناعية » وحدها ؟

بل هل يستطيع أحد أن يقيم لنا دليلا أو شبه دليل على أن
الخنساء نفسها قصدت أن تأتي بهذا الجنس في كلامها ونحن

(١) الجنس التام يكون بإيراد الالفاظ المشتركة للمعاني المختلفة وقد
ورد في قوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير
ساعة) وفي قوله : (يكاد سنابرقه يذهب بالابصار) — الى قوله —
« أن في ذلك لعبرة لأولى الابصار » فإذا تماثل ركناه بأن كانا فعلين معا
أو اسمين كما في الآيتين سمى متماثلا والافهه مستوفى كما في قول طاهر
أما الجنس المطرف فهو الذي يتفق ركناه في أولها ويكون مذيلا اذا
اتفقا في الآخر

نعلم أنها قد ماتت سنة ٢٤ هجرية أى قبل تدوين علوم البلاغة
وتبويبها على الاصطلاح المعروف الآن بنحو مائتي سنة . . أو أن
التبحر في هذه الفنون واستقصاء ما في كلام البلغاء من ضروب
المجاز والكناية والاستعارة الخ . . . يبعثان في النفس تلك
الروح الشعرية العالية إذا لم يكن عندها ذلك الذوق
والاستعداد من قبل ! !

هاكم حكاية صغيرة تناسب المقام :

سمع أحد شعراء المغرب شعر الصاحب بهاء الدين زهير
المصري ^(١) فحمله ذلك على أن يقصد مصر ليتعلم رقة الشعر
من ذلك الوزير ، فلما لقيه ووقفه على شأنه قال له الصاحب ان
ذلك أمر لا يعرف بطريق تعليم علمي وإنما يصرف الشاعر فكره
فيما يرد عليه من لطائف الشعر ودقائق المعاني ويتأمل من
جهات اللطف فيها حتي تأخذ من طبعه مكانا وحينئذ يجتهد
في محاكاتها ، فعليك بادمان قراءتها على هذا الحد ، قال والآن
أتق عليك صدر بيت لتعمل له عجزا وتطلعني عليه وأنشده :

(١) كان وزير الملك الصالح أحمد ملوك مصر توفي سنة ٦٥٦ هـ

« يابان وادي الأجرع »

فأخذه المغربي وانصرف يكد فكره في تتيمة ثم جاء
صبيحة ليأته الى صاحب وأنشده :

يابان وادي الأجرع * سقيت غيث الأدمع
فقال صاحب : الصدر يطلب غير ذلك وأتمه بقوله :

« هل ملت من طرب معي »

أقول ، وهذا الوزير الجليل محمد سامي باشا البارودي أبو
شعراء مصر وأميرهم وإمامهم ، علمت من ترجمة الرجل أنه لم يقرأ
كتابا في النحو ولم يثلق فنا من فنون البلاغة على النظام
الازهرى المعروف (١)

ونكنه لما بلغ سن التعقل وآنس من طبعه ميلا الى قراءة الشعر
وعمله بدأ في أول أمره باستماع بعض ذوي الدراية وهم يقرءون

(١) تمكن المصلحون بعد جهاد أبوار فيه أحسن البلاء أن يقتنعوا ولاية الأمر
بنسخ طرق التدريس في كثير من فنون الادب والبلاغة في الازهر
ونحوه من المعاهد الدينية وقد سنت لذلك (لوائح) جديدة حتم بها ان
يكون تدريس الانشاء والأدب مقرونا بالتطبيق العملي والمنتظر ان
ذلك يزيد تهديبا بالمران وكثرة التجارب

دواوين الشعر بخضرته حتى ارتسعت في ذهنه طائفة من التراكيب العربية ، وتصور في برهة يسيرة مواقع المرفوعات والمنصوبات والمخفوضات بحسب ما تقتضيه المعاني والروابط الكلامية فصارت قراء ولا يكاد ياجن ، ثم توفّر على قراءة دواوين كبار الشعراء في الجاهلية والإسلام حتى حفظ الكثير منها واستثبت جميع معانيها فأقدا شريفها من خسيسها ، باحثا عما جاء منها وفق ما يقتضيه المقام ، ويستدعيه سياق الكلام فانتقدت إليه المعاني ، وتصرف في معارض الكلام ، وعارض في آخر أمره الشريف الرضى والناطقة وأبا نواس وأبا فراس وغيرهم وغيرهم

وينتظم في هذا السلك ما نرويه من أن أبا عبيدة بن طاهر سأل البحري عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر فقال « أبو نواس » قال فإن أبا العباس ثعلبا لا يوافقك على هذا قال « ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دفع إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته » أجل ! هذا هو رأي الذي لا اتحول عنه ، وقد ذهب فريق

من العلماء الى ان الخنساء مثلا تعتمد أن تأتي بالجناس في قولها

ان البكاء هو الشفا * ء من الجوى بين الجوانح
وإن لم تسمه هي جناسا ، وطال بيننا الحوار في ذلك ثم استقر
الرأي على أن التحسين الذي يتوخاه العربي أعم من أن يكون
لفظيا او معنويا

أقول ، وهو عين ما أدعو اليه ، وأحاول إقامة الدليل عليه
بل ذاك ما وضعت هذه الرسالة من أجله ؛
ألا تري أن الخنساء نفسها اذا نقلت هاتين الكلمتين العذبتين
« جوي وجوانح » من شعرها السابق الى سياق آخر من
الكلام قل أن يكون لهما من الطلاوة والحسن ما لهما في هذا
البيت :

ألا تري أن لفظ « اللب » مثلا لم يستعمل في القرآن
الا بصيغة الجمع خلفه اللفظ مجموعا وثقله مفردا ، وأن لفظ
« أرض » على العكس لم يرد في الكتاب الا بصيغة الافراد
خلفه الكلمة مفردة وثقلها مجموعة

مثال قوله تعالى « وما يتذكر إلا أولوا الالباب وقوله: ليذبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب » (١) ومثال الثاني قوله سبحانه « والله أنبتكم من الارض نباتا ، الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » على ان مقابلة الجمع بمثله كانت منتظرة فى الآيتين الأخيرتين : ألا ترى أن لفظ « اللب » الذى ينبوه موضعه اذا وضع فى الآيتين السابقتين قد حسن وقعه جدا فى قول جرير ان العيون التى فى طرفها حور * قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله انسانا وفى قول الآخر :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بليب
وفى الحديث الشريف :

« ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب لب الحازم منكن
يا معشر النساء » !

ألا ترى من هذا كله أن الكلمة الواحدة قد تكون

(١) قارن بين هذه وبين : (وما يتذكر إلا ذو اللب) . . .

سهلة خفيفة في مكان ، جافة ثقيلة في مكان آخر بحسب
الأوضاع والصيغ والأساليب . ولا مجال للصناعة في شيء
من هذا « الاختيار » حتما وإنما الحكم العدل فيه كله : الذوق
وسلامة الطبع !!

هاكم زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات : كان في وسع
هذا العربي البليغ وهو يهذب قصيدته حولا كاملا أن يرصع
كلامه بما شاء وشاءت له غزارة المادة من مبتكرات الخيال
والتشبيه ومحسنات اللفظ والمعنى ، ولكن العربي كما قررنا غير
مرة إنما ينظر الى تحسين « المجموع » ويبحث عن « استقامة
المعنى » على قدر ما يتسنى لقريحته أن تنضج ذلك ، وتحكم
صوغه ، وتحسن املاءه . ومن هنا ينأى التفاوت في كلام العرب
بلاغة وعجازا .

كل ما أقوله في هذه الفنون « الصناعية » التي هي من
قبيل الجدل والخلافيات في الفقه وأصوله أن أثرها في تلطيف
الوجدان واتقاء ملكة الذوق يكون على نسبة ما تحويه مصنفاتها
من مختارات كلام العرب شعرا ونثرا وكثرة امعان الباحث

في ذلك لا من حيث هي قرانين واصطلاحات فتأمل ! (١)
وقد سوى الامام الزمخشري نفسه بين هذه الفنون الثلاثة
« النحو والمعاني والبيان » من حيث أن الحاجة اليها جميعا لغير
أرباب السليقة ، على أن الأخيرين منها كانا عمدته وعتاده في
تفسير الكشاف ! (٢)

وانص ابن خلدون في مواضع متعددة وبمناسبات كثيرة
على أن مزاوله « القوانين » البلاغية المسطرة في الكتب
ليست من تحصيل ملكة الذوق في شيء ، ويعجبنى حسن
استطراده عند الكلام على الفقه والأصول وطريقة تعليمهما
الى القول بأن هذه الملكة يوم كانت ملكة لم تكن علوم اللسان
كلاما - مرحى ! (٣)

ولا تنس أن أرقى دور مر على هذه اللغة هو الدور الذي
كانت اللغة مطلقة فيه من هذه القيود التي تنفيها الفطرة
(١) ما أحوج طالب البلاغة الحقيقية أن يتحلى بشيء من علمي النفس
والاخلاق !
(٢) لأسباب تعرفها بعد من كلامنا في المنطق — (٣) كلمة تقولها
العرب عند الاعجاب بالشيء

وتمجيبها السليقة

والكلام يؤدي بنا الى المنطق :

يقولون ان المنطق مثلاً رئيس العلوم ، وهو عندهم الجوهر
الفرد ، والجزء الذي لا يتجزأ ، والعين التي يبصرون بها ، واليد
التي يبطشون بها ، فاذا قلت لهم : فما بال الأئمة المقتدي بهم
كالشافعي ومالك وأبي حنيفة لم ينقل عنهم أنهم اشتغلوا به وعنوا
بتحصيله واستعانوا بقضاياه ونظرياته على تمحيص مسائل
الفقه واستنباط أحكام الشريعة ، قالوا ان ذلك مركزوز في
جبلاتهم السليمة ، وفطرهم المستقيمة ، وانما فاتتهم العبارات
والاصطلاحات فقط !! (١)

نقول ثانياً : وهذا الذي نعنيه ، ونحاول تنبيه الازدهان
كافة اليه ، ويرحم الله ابن تيمية اذ يقول : « ما أظن أن الله
يتجاوز عن المأمون العباسي ، بل لا بد له أن يعاقبه بما أدخل

(١) ثبت أن الامام الشافعي ناظر بشرا المريسي وغيره من تلامذة ابي
يوسف وأصحاب أبي حنيفة ولكن لا باعتبار أن ذلك يسمى فناً أو
علماً بأصول وتعاريف وأبواب وفصول الخ . . .

على هذه الأمة »

قال ذلك لأن المنطق ليس من العلوم الإسلامية بل هو فرع من الفلسفة دونه أرسطو الحكيم اليوناني المولود قبل الميلاد ب ٣٨٤ سنة ، وإنما نقل الى العربية في عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) حين نجمت فتنة القول بخلق القرآن ، ونفقت سوق الاعتزال^(١) وعقدت مجالس المناظرة بينهم وبين أهل السنة فاحتاجوا الى الجدل والمناظرة ، واستهزوا الناس بما انتحلوا من ذلك وتوسعوا فيه ، ولو شاء الله ما فعلوه ، سبحانه يخلق ما يشاء ويختار :

غاية المنطقي وقصاراه — كما يؤخذ من نفس تعريف الفن — أن يبرز في صناعة الجدل ، وتنمو لديه ملكة المناظرة حتى يعرف كيف يأخذ على خصمه المسالك ، ويهدم ما أتى

(١) أول من تكلم في الاعتزال واصل بن عطاء (١٣١ هـ) المتكلم البليغ المشهور : كان يجلس الى الحسن البصري ثم ظهر برأي خاص في حكم مرتكب الكبائر وقال ان للفاسق من هذه الأمة منزلة بين السكفر والايمان فأمره الحسن أن يعتزل مجاسه ففعل وتبعه عمرو بن عبيد وغيره : لهذا سمو بالمعتزلة

به من الحجج والدلائل ، فيجمله على الأذعان له ، والتسليم بما أتى به ، وقد قسمه المتأخرون الى خمسة كتب (وكان اليونانيون يقسمونه الى تسعة) منها الجدل « ديبالطيقا » والسفسطة (سوفسطيقا) ، ..

وعندى أنه أشبه شيء بالمعادلات الجبرية ، والنظريات الهندسية ، فاذا بلغ صاحب المنطق ما بلغه الجبري في القدرة على ترتيب المقدمات ، وتركيب المعادلات ، وأن يصل به الخلق الى أن يعرف كيف يقيم الحجة على أن الواحد يساوى الاثنين فذاك وعليك أن تعرف بعد ما يكون من أثر مثل هذا اذا كان البحث في العقائد ^(١) واليك أعجوبة من أعاجيب الجبريين :

المطلوب إقامة الدليل على أن $٢ = ١$

لذلك نفرض أن هناك كيتين متساويتين مثل هـ و س
ثم نضرب طرفي هذه المتساوية في هـ فيحدث :

(١) من هذه الوجهة يساق الحديث وقد أشرنا الى رأى ابن تيمية في ذلك فلا يخرج أحد بكلامنا عن المراد منه توسعا لحاجة في النفس أو مرض في القاب

$$ه^2 = ه س$$

وبطرح س^٢ من الطرفين ينتج :

$$ه^2 - س^2 = ه س - س^2$$

وعندهم أن الفرق بين مربعي كميتين يعادل حاصل ضرب مجموع الكميتين في تفاضلهما، فإذا استعويض عن الطرف الأول

من المتساوية السابقة بما يعادله نتج :

$$(ه + س) (ه - س) = ه س - س^2$$

وإذا اخذ س مضروباً مشتركاً في الطرف الثاني ينتج :

$$(ه + س) (ه - س) = س (ه - س)$$

وبقسمة الطرفين على (ه - س) يحدث

$$ه + س = س$$

وحيث أن الكميتين ه و س مأخوذتان متساويتين في

رأس المسألة ،

فإذا استعويض عن ه بمساويه يكون

$$س + س = س \quad \text{أو} \quad ٢س = س$$

وبقسمة الطرفين على س ينتج

$$١ = ٢$$

على أن هذا الجيل قد انقضى وذهب بخيره وشره مما
فتيقظ !

...

وبعد فلا خير في المعاني اذا اقتيدت قهرا ، ولا في
الالفاظ اذا اخذت قسرا ، وقد نهى علماء البلاغة أنفسهم عن
المعاذلة بين الكلام^(١) وتكلف الجمع بين المحسنات البديعية
ونحوها في الانشاء بضروبه ، وأنه لا ينبغي للعارفين بجواهر
الكلام أن يرجوا على هذه الفنون ومستتبعاتها الا حيث
يستدعيها المقام ويتطلبها السياق ، ولكن هناموضعا للتساؤل
وان شئت فقل للاستشكال ، ونضرب لهذا الاستشكال بمثال
زيد من الناس يتلقى دروسا في البلاغة ، قال له المدرس
يوما : ان من ضروب البديع أن تأتي في كلامك بما يسمى

(١) المعاذلة هنا التعقيد : كان عمر بن الخطاب يمدح زميرا بقوله : انه
كان لا يعاظم في القول ولا يتبع حوشي الكلام

« افتنانا » وذلك بأن تجمع في عبارتك بين فنين من المعاني كالغزل والحماسة ، أو التهئة والتعزية :
مثال الأول قول عبد الله بن طاهر :

نحن قوم تديننا الأعين النجس — على أننا نذيب الحديد
ومثال الثاني قول ابن التبيه في تعزية ملك وتهنته بالملك بعد
أبيه :

هنا محاذك العزاء المقدما * فما عبس المحزون حتي تبسما
ولكن مدرس البلاغة نهاه أن يعتمد قول مثل هذا
ويتكلف ما لم يجد به طبعه ، وأنه إذا فعل هذا جاء بالنافر
النابي من الألفاظ ولم يجد معانيه مسانغا الى القلوب والأسماع
كلام حسن ، وأسلوب مستملح في النصيحة والاقناع ،
ولكن متى يفتن زيد هذا الى النابي من الألفاظ ، والفت
المستكره من الأساليب ؟ وما الذي يحمله على النكول عن
هذا التعبير الى غيره مما هو أخف على الأذن وأسرع في الوصول
الي القلب ؟ وما هو السبيل يا قوم الى أن يعرف طالب
البلاغة أن هذا التشبيه مألوف في كلام العرب وهذه الكناية

مستملحة في الإبانة عن الغرض والاشارة الى المقصد ؛
أليس سبيل ذلك كله الذوق ، وطريقه إنماء ملكته
بالاستقراء والتتبع لكلام العرب وأساليبهم في الشعر والانشاء
بضروبه ؟

واذا أتيح لزيد هذا الذي نحن بصددده أن يبلغ هذا
المبلغ في الاتيان بالمحسنات اللفظية والتفنن في ضروب الكناية
والتشبيه والاستعارة ، فماذا يعنيه بعد ذلك أن يسمى هذا
المجاز عند البيانين مجازا لغويا أو عقليا ، وأن هذه الاستعارة
تسمى مصرحة أو مكنية !

وانما يحسن بمن جاء مثلنا في هذه العصور المتأخرة وأنس
كثيرا بلهجة العامة ولغات الافرنج أن يتصفح شيئا من
كتب هذه الفنون لأن علماءها جمعوا فيها كثيرا من مختارات
الشعر وبدائعها توصلا الى تدوين ما تصدوا اليه من الاصطلاحات
الوضعية لكل فن منها ، فان ذلك نافع على كل حال
أيها السادة ! - على مرید النبوغ في لغة العرب وتحصيل
ملكة الذوق فيها أن يتتبع كلامهم ويمعن كثيرا في أساليب

خطبهم وقصائدهم ، وحكمهم وأمثالهم ، وأن يحفظ الجيد المختار
من ذلك ، فلي قدر جودة المحفوظ وطبقته تكون جودة
الملكة الحاصلة عنه ، وأن يأخذ نفسه في بادئ الأمر بتفهم
المعاني ونثر بعض الأبيات الشعرية ثم يترقى إلى اختيار بعض
الأمثال العربية فيتكلم عليها وينشئ الرسائل في موضوعاتها
ويرجع بما يكتبه إلى من عرفوا بطول الباع في الإنشاء والتحرير
فيعرض عليهم كلامه ، ولا يني في خلال ذلك كله من تصفح
منشآت المتقدمين ورسائل الخلفاء ليعرف متى يحسن الإيجاز
ومتى ينبغي الإسهاب ، وما يناسب أن يستشهد به في ذلك
من آيات الكتاب وأحاديث الرسول وأمثال العرب وأخبارهم
وأشعارهم وبعض الحوادث واللمع التاريخية الخ الخ
ولا يفوتن كاتب الرسائل بوجه خاص أن يراعى حال المكتوب
إليه علما وذكاء ومقاما ومنصبا على نحو ما فعل يزيد بن الوليد
مع إبراهيم بن الوليد وقد هم أن يمرق من طاعته ، قال : « أما
بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا جاءك هذا
فاعتمد على أيهما شئت والسلام ! »

وعلى أن هذا من الفصاحة والبلاغة بالرتبة العليا فإنه لم يكن يعمل في المكتوب إليه ولا لينفع عنده لو لم يكن إبراهيم بالمكان الذي يعرفه يزيد فيها وذكاء ، فمن الناس من يقنعه يسير الخطاب ، ومنهم من لا يجدى معه غير ألا يعاد والارعاد وتكرير المعاني وتضييق المسالك ، وكثرة التبصير بمواقع الزلل ومواطن الخطأ ، والإيجاز أليق في مخاطبة الملوك وذوى الأخطار العالية ، والاطناب أحق به العهود السلطانية « كرسائل الصابي » والمكاتبات الصادرة في الفتوحات وما يسمى في عرف أهل هذا العصر « بالتقارير »

قرأت في يتيمة الثعالي أن بلكا بن ونداد خورشيد مرق مرة عن طاعة ركن الدولة بن بويه ، فلما اشتدت شوكرته واستفحل أمره كتب إليه الأستاذ أبو الفضل بن العميد كاتب ركن الدولة كتابا لولا خشية الاطالة اسردت منه هنا ما ينبغي بمقدار الرجل ومكانه من البلاغة وقوة التأثير — قال بلكا : « لقد والله كتب الى كتابا يغني عن الكتاب » ثم أخذ الى السكينة وثاب الى طاعة مولاه

أقول وقد ترجع بعض أسباب الركاقة والضعف الى الجهل بمقتضيات الاحوال واختيار الساعات التي تجم فيها التريجة ويحس المنشئ من نفسه فيها بالاجادة ، وقد يبرز الشاعر الواحد في منحى دون غيره من مناحى الشعر ومقاصده وهذا معني ما أجاب به بعضهم وقد سئل عن أشعر الناس : قال — أشعرهم امرؤ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابعة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب ،

وليس معينا أن يرتج على الشاعر وتجمد قريحة المنشئ ، فكثيرا ما يعرض هذا للبلغاء ومصارع الخطباء ، كان الفرزدق ومكانه من الشعر مكانه يقول : « انى لير علي (١) الوقت ولتلع ضرس من أضراسي أيسر علي من قول الشعر » !

وليتنا — أيها السادة — لا نكثر من مطالعة صحف السياسة ، وأن تقتصر منها علي ما تعيننا معرفته من شؤون بلادنا ثم نعود الى مصنفات الأدب والتاريخ فنعب منها عبا ونعوص على دررها غوصا ، وأن نطرد من أذهاننا ما قد يعاق

بها من تلك التراكيب السقيمة والأساليب النازلة والجمل التي
حفظها عمال المطابع وجمعوا كثيرا من قوالها للرجوع اليه
مرصوفا عند الحاجة ^(١) فان الطبع سراق ، والنفوس وان
كانت واحدة بالفطرة والنوع الا أنها تختلف قوة وضعفا
واستعدادا للأخذ وسرعة التناول ، ومن ثم تجد لكل طائفة
من العلماء والمؤلفين لغة خاصة ولهجة معروفة ، فانشاء النحوى
مثلا غير انشاء الصوفى غير انشاء علماء الأصول والفقه الخ الخ
وهذا الكثرة ما يزاوونه من كتب الفن الواحد ويتداولونه
من العبارات فيما يضعون من المصنفات ، فاذا أراد الفقيه مثلا
أن يكتب أو يتلى فى غير الفقه سبقت الى خاطره الألفاظ
والعبارات المتداولة فى فنه بحكم غلبة العادة ، فيهجن عبارات الفن
بادخالها فيما ليس من نوعها ، ويشود سياق المقام الذى يتكلم
فيه بما لا يلتئم معه ، ولقد بلغ من ذكاء بعض كبار المنشئين أنه
كان يعرف قائل القصيدة من أى فن هو ، وإلى أى طائفة
ينتمى ، أخذا عن عباراته ، وسياق منشأته !

(١) الحكم على الصحف من هذه الوجهة بطريق التغايب

روى أبو الفاسم بن رضوان قال : ذا كرت صاحبنا أبا
العباس بن شعيب وكان المقدم في البصر باللغة لعده فأنشدته
مطلع قصيدة « لابن النحوى » الفقيه ولم أنسبه له وهو هذا
لم أدر حين وقفت بالأطلال * ما الفرق بين جديدها والبالى
فقال لى على البديهة : هذا شعر فقيه ، قلت ومن أين لك ؟
قال من قوله « ما الفرق » اذ هي من عبارات الفقهاء وليست
من أساليب العرب ! فقلت لله أبوك ان قائلها فلان
وبعد فانا والحمد لله في وسط يساعدا كثيرا على ترقية
ملكاتنا في العلوم اللسانية وغيرها نخلق بنا أن تقدر هذه
المزايا وتنتفع بهذه المواهب !

نحن أيها السادة في عصر المطابع والبريد والأسلاك
البرقية ، وقد كان المتقدمون يضربون أكباد الابل ويحدون
رواحلهم الأيام والشهور رغبة في تلقى حديث أو تصحيح رواية
أو تحقيق حادثة أو ضبط كلمة لغوية : بلغ من عناية بنى أمية
وشغفهم بالعلم أنهم ربما اختلفوا وهم بالشام على بيت من الشعر
أو خبر أو يوم من أيام العرب فيردون فيه البريد الى العراق

ويرحم الله أبا عبيدة اذ يقول : « ما كنا نفقد في كل يوم
راكبا من ناحية بنى أمية يذبح على باب قتادة (١١٧هـ) يسأله
عن خبر أو نسب أو شعر »

ونحن قد أبلينا أمهات الكتب بالذسيان والترك ،
وسلطنا عليها عث الخزائن يأوى الى مجلداتها ويقتات من
أوراقها ، وكادت علوم السلف تصبح غريبة يبتنا ، فكم منا من
خصص ساعة من يومه أو من أسبوعه لتصفح (١) شىء من
تفسير القرآن أو سفر من أسفار التاريخ وعلوم الأدب والاجتماع
وفي وسعنا أن نحمل ما نريد من ذلك الى مجتمعاتنا وأنديتنا
لمطالعة ما نريد منها وأن يحاضر بعضنا البعض في فنونها وبعض
أبحاثها ! ليس منا والحمد لله الا من يملك مصنفات مختارة في
فن أو أكثر من أخلاق وفلسفة وحديث وتفسير ، ونحن
لا نحتاج في قراءة كتب التفسير نفسها الى غير اللغة العربية

(١) تصفح الكتاب نظر فيه بامعان وقرأه ورقة ورقة : وفي فقه اللغة
« اذا نظر في كتاب أو حساب ليهدبه أو ليستكشف صحته وسقمه
قبل تصفحه » — أقول وقد شاع استعماله في عكس ذلك خطأ
فليتنبه !

والتضلع منها وانماء ملكه الذوق السليم في فهم الدقيق من
معانيها وألفاظها ، وقد كان ابن عباس وهو امام المفسرين يقول
« اذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر فانه
ديوان العرب »

فماضينا أيها السادة لو عطفنا على هذه الكتب ، بل ما ضرنا
لو أشفقنا نحن على أنفسنا ونقضنا غبار هذا الذل عن
رؤوسنا ؟

يجلس أحدنا في مجتمع عام فيسمع خوض الجاهلین
في الاسلام وتعاليمه ، هذا يتكلم في تعدد الزوجات ، وذلك
يستبيح الطعن على عقيدة القضاء والقدر ، ومن مشنع على
تشريع الطلاق ، ومشهر بمسألة التوكل ، ونحن سكوت
لا يسعنا أن نلزمهم الحجة ، ونفحمهم بالدليل والبرهان ، وأن
نورد عليهم من حكمة التشريع في كل ذلك ما يكون فيه
فصل الخطاب واغلاق ذلك الباب !

أليس واجبا علينا أن نكون أعرف بلغتنا وتعاليم شريعتنا
من هؤلاء المستشرقين الذين يعكفون على مدارس العربية

وعلموها ثم يذهبون للتشهير بنا ورمينا بالجود والخود؛
أليس فرضاً مقدساً علينا أن نغنى بدرس أمهات المسائل
الاجتماعية والأخلاقية التي قام عليها صرح هذه المدنية
الإسلامية العالية؟

إن مثل هذا النادي يعد من أعون الذرائع على مقاومة
طبيعة الكسل التي رانت على قلوبنا إذا أنتم ثابتتم أيها السادة
على جعله ميداناً لاجتلاء القرائح وحلبة تتسابق فيها أفهام
الباحثين ، فأناشدكم الله أن تحافظوا على كيانه ، وتبدلوا
مجهودات كبيرة في توسيع دائرته وإعظام شأنه ، وأن يعني
فضلاؤكم — وكلكم ذلك الفاضل الغيور — بأعداد الأبحاث
النافعة له ، وافادتنا بنتائج جهادكم في رد الشبهات ، ودرء
أخطار التلاشي عن ملكتنا العربية ، ووحدتنا القومية ،
وجامعتنا الإسلامية ، والسلام عليكم ورحمة الله ؛